واحدة، ولكن بشكل مجاميع واسعة ومتفرقة، مُشبّعة بالعصبية والغرور، مشغولة بالخصومات والمفاخرات. وقد كان الجدال والصراع بين هذه القبائل من السعة والانتشار بحيث أصبحت الحرب عملهم اليومي وشغلهم الشاغل، ودارت معيشتهم وتجارتهم وأسفارهم وعباداتهم على محور الحرب، ونظمت على أساسها. وباستثناء الأشهر الأربعة الحرم (ذي القعدة، ذي الحجّة، محرم ورجب) التي منع فيها القتال طبقاً لسُنة قديمة لإيفاء متطلبات الحياة والتجارة والعبادة، فقد كانوا في سائر أوقاتهم في حالة حرب، أو تأهّب لها. هذا الصراع الدائم كان منشأ لتحالفات جمة، وعهود مختلفة بين القبائل، وأوجب، بشكل كلي، أهمية الثبات والوفاء بالعهد، وقبح نقض العهود وخيانة المواثيق. وكان دفاع القبائل المتحالفة والمتعهدة عن بعضها البعض، يعد أمراً حتمياً وواجباً مسلّماً لدى العرب، وهذا الأمر أورث لهم قهراً خصالاً حميدة كالشجاعة والضيافة والسخاء. وقد ربّت حياة الصحراء، وعدم الانقياد لحكومة واحدة، روح التحرر وحب الاستقلال والإباء وعلوّ الهمة والرفعة في النفوس، أما من ناحية أخرى فقد سبّبت الحرب المستمرة في إضعاف الاقتصاد الهزيل المتهالك للعرب الناشيء من أوضاعهم وتخلّفهم، وشلّت بشكل خاص، تجارتهم وزراعتهم. وقد تزايدت أعداد البؤساء، ومعلولي الحروب، والأطفال اليتامى الذين قُتل آباؤهم، والإسراء بلا كافل، والعبيد المقهورين، وكان هؤلاء المظلومون المحرومون يبدون للعيان في كل مكان.